دار المخطوطات في إستانبول تحتفل بيوم المخطوط العربي ٢٠٢١م

التراث في زمن الأوبئة

أ. د. محمود مصري
جامعة السلطان محمَّد الفاتح الوقفية - تركيا

شاركت دار المخطوطات بالاحتفال بيوم المخطوط العربي ضمن برنامج افتتاح الدار في مدرسة السلطان أحمد التاريخية، وذلك في ندوة علميَّة خصِّصت لهذا الغرض، تحدَّث فيها كلٌّ من د. محمود مصري المدير العام لدار المخطوطات بإستانبول وعضو الهيئة التدريسية في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية، و د. نائل قاضي المتخصص في تاريخ العلوم من أمريكا، وكانت هناك مداخلات عن بعد من دول متعدِّدة. وكان معهد المخطوطات في القاهرة قد حدَّد موضوع احتفاليَّة يوم المخطوط العربي لعام ٢٠٢١م، حول «التراث في زمن الأوبئة».

كانت ورقة د. محمود مصري بعنوان: «**أسس التعامل مع الوباء في التراث**»، تناول في مقدِّمتها مناهج الكتابة في الأوبئة عند علماء المسلمين، وجعلها في ثلاثة أنواع: **الأول**: معالجة الموضوع من جانب ديني، يتعلَّق بالنظر إلى العدوى والتطبُّب والتعامل مع الأسباب والتوكُّل والحجر الصحي والمرض من الناحية السلوكية والتربوية والنفسية والاجتماعية. **الثاني**: معالجة الموضوع من جانب طبي، حيث تناول العلماء أسباب المرض وأعراضه وعلاماتِه وتشريحه المرضي وتدبيره الوقائي وعلاجه الدوائي. **الثالث**: الجمع بين الثقافة الطبية العامَّة والفلسفة الدينية والجوانب الاجتماعية المتصلة بالوباء.

تعرَّض بعد ذلك إلى الموضوعات التي تطرَّق إليها الأطباء التراثيون، مثل إثبات العدوى، وأسباب الوباء، وانتقاله في الهواء، وتأثير البيئة في ذلك، وما يترتب على ذلك من تخير أمكنة الإقامة. وجاء بأمثلة من كلام البلخي والرازي وابن سينا وعلي بن عباس والتميمي.

كما تحدَّث عن رسالة لسان الدين ابن الخطيب في القرن السابع «مقنعة السائل عن المرض الهائل» التي وضعها لمساعدة الأوربيين في علاج الطاعون الذي حصل في زمنه، وما فيها من إثبات العدوى، والتحذير من تفشي المرض بسبب التماس مع المصاب، ومن الإشارة إلى أهمية استعداد المريض في دفع الوباء عن نفسه، وهو ما نسميه الآن بقوة المناعة لدى المريض.

وتحدَّث عن إجماعهم على ضرورة العزل والحجر الصحي، والتوجيه إلى الاجتماع في الأماكن المفتوحة، والتوجيه إلى التباعد الفيزيائي، مع العناية الخاصة بالرياضة والفصد للوقاية من الوباء، وضرورة تحسين الغذاء وإصلاح الهواء واستعمال الحمام وتخيُّر أماكن الإقامة الجيدة المرتفعة والمعرضة للهواء.

وختم الكلام بموضوع معالجة الأطباء الجوانبَ الدينية والفلسفية والاجتماعية من الوباء، ومثَّل لذلك بما كتبه طاش كوبري زاده في رسالته «الشفاء لأدواء الوباء»؛ التي استوفت جميع الموضوعات المتصلة بهذا المرض، ابتداء من التنظير لحكم التداوي عموما، وأحكام الوباء والطاعون على وجه الخصوص، وانتهاءً بالتبعات الاجتماعية للمرض، ونظرة الإسلام إلى الوباء، ببيان الحكمة من وقوعه، مع ملاحظة أن كلَّ ذلك مضاف إلى كتاب ينتمي أصلا إلى علم الطب، يبحث في الطاعون من جهة أسبابه وسرايته وعلاجه. وذكر ما خلص له المؤلف من أن الفرار من الطاعون حرام، والخروجَ مرخَّص فيه بشرائط، منها حفظ أمر الاعتقاد، وعدم تضييع المرضى، وعدم الإخلال بتوفية حقوق الموتى، وعدم خلوِّ البلاد عن الأغنياء الذين هم معونةٌ للعباد، وذكر بأن هذا الذي قرَّره طاش كوبري زاده منتهى ما يرمي إليه ما نسمِّيه اليوم بطبِّ المجتمع.

أما ورقة الدكتور نائل قاضي فقد كانت بعنوان: «**الوباء في مخيِّلة العربي والفرنسي زمن نابليون**». وكان البحث عبارة عن نافذة على الصراع أثناء عدَّة مواسم للطاعون؛ بين الثقافة والآراء الطبية والصحية للعرب المصريين من سكان مصر والفرنسيين من الجنود المحتلِّين لمصر. وتأتي أهمية الموضوع لكون الطاعون – كما رأينا اليوم – يفضح كثيرًا من القيم في المجتمع وأحوال الناس.

وسلك الباحث منهجًا اعتمد على فيه طريقَي التصوُّر (التاريخ الطبي) والتطبيق (التاريخ الاجتماعي) لإلقاء الضوء على تعقيدات ذلك العصر. واشتملت مصادره على كتابات أطباء جنود فرنسا وكتاب الجبرتي المسمَّى «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وكتب الرحلات لبعض المسافرين الذين أتوا من إيطاليا وفرنسا وبريطانيا قبل الاحتلال.

وبدأ الباحث بكشف ماهيَّة النظرية الطبية حول الوباء عند الفرنسيين وعند العرب في هذه الفترة. ثم نظر في الأحداث تحت الاحتلال الفرنسي، وهي عبارة عن تطبيق هتين النظريتين في هذا السياق السياسي والاقتصادي والحربي.

وكان لا بدَّ من التفريق بين الطاعون الرئوي والدُمَّلي، فالأول نُقِل بالبرغوث،

والثاني بالتنفس، مما يفسِّر كثرة النظريات حول أصل الوباء وإمكان تعديته.

فما التدابير التي اتخذها الفرنسيون؟

كان القرار الأول: تفتيش البيوت، وعند زيارتهم البيوت طلبوا ممن أصيب بالطاعون أن ينشر كلَّ الثياب والأمتعة خمسة عشر يومًا. والقرار الثاني: يتعلَّق بأمر دفن الموتى؛ لأنهم ظنُّوا أن العفونة من الأرض مصدر المرض. فكانت بداية النهاية للفرنسيين تدخُّلهم في شؤون الدفن والمقابر حتى خرج الناس في المظاهرات.

لكن في الوقت نفسه نرى أن المسؤولين من الأطباء الفرنسيين قدَّروا ثقافة المسلمين، حتى لم يكتفوا بذلك؛ بل طبَّقوا ما رأوا من المسلمين في أمورهم الرسمية.

فعلى سبيل المثال ذكر طبيب اسمه باولو اسليني في بعض كتاباته: «من المؤكَّد أن المسلمين خلال الطاعون يراعون المريض بعناية خاصة إلى آخر لحظة من حياته.. لو أُصِبتُ فجأة بالطاعون أفضِّل قطعًا أن أكون في أيدي المسلمين بدلًا من أن أكون في أيدي الأوروبيين».

يمكننا أن نستنتج من هذا البحث أن الفرنسيين قد أخذوا ملاحظات ومعرفة جديدة فيما يتعلق بمراعاة النظافة، والتوازن بين الأخلاق واحتمال العدوى في عيادة المريض واحترام الموتى.

بعد ذلك كانت مداخلات ثلاث في الجلسة، الأولى للأستاذ الدكتور محمد الصوفي مدير المعهد الثقافي الإفريقي العربي في مالي، الذي قدم إلى إستانبول لحضور حفل افتتاح الدار، وقد تحدَّث عن أهمية افتتاح دار المخطوطات في مدينة إستانبول، وتطرَّق إلى الآثار الاجتماعية والدينية التي خلَّفها وباء الكورونا المنتشر حاليًا في العالم، في سياق تعليقه على موضوع يوم المخطوط العربي.

والثانية كانت مداخلة الدكتور خليل قراجة الرفاعي عميد مؤسَّسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية ببيت المقدس، وقد تحدَّث فيها عن الأوبئة في بيت المقدس،

والوباء الذي حلَّ بجيش نابليون في حصار عكَّا، الذي أدَّى لهزيمته، وعن ضرورة تحقيق التراث الطبِّي واستخراج ما فيه من كنوز.

ثم كانت المداخلة الأخيرة للأستاذ الدكتور المهندس جلال الدين خانجي المتخصِّص في تاريخ العلوم من جامعة غازي عنتاب، الذي أكَّد أهميَّة ما يمكن أن يكون في دار المخطوطات من العناية بدراسات تاريخ العلوم، وتطرَّق في كلمته إلى فائدة تلك الدراسات، كما تطرَّق إلى اهتمام الحضارة الإسلامية بعلم العمران، بخلاف ما كان يروِّج له المستشرقون، وأشار كذلك إلى ضرورة الإفادة في مناهج التراث لاكتساب العلوم والمعارف.

وننوِّه إلى أن دار المخطوطات تمَّ افتتاحها في مطلع عام ٢٠٢١م في مدرسة السلطان أحمد في إستانبول برعاية من معهد نور الهدى العالمي بكندا ووقف السلطان أحمد في إستانبول، وهي تنهض بمشاريع علمية كبيرة في جميع المجالات الحيوية للمخطوطات خدمةً لتراث الأمة الإسلامية، وتوظيفًا له في مشروع إعادة الشهود الحضاري لها.